المقتطف

الجزء الخامس من السنة السادسة عشرة

١ فبراير (شباط) سنة ١٨٩٢ الموافق ٢ رجب سنة ١٣٠٩

الخطب الجلل

رُزئ القطر المصري بفقد عزيزه ورافع راية العدل في ربوعه الامير الخطير محمد توفيق باشا اصيب بالنزلة الوافدة يوم الجمعة في غرة يناير (ك ٢) فشكا منها الى يوم الاثنين واعتدلت صحته حينئذٍ ثم انتكس يوم الثلاثاء. وفي الساعة التاسعة من ليلة الاربعاء طرأت عليه اعراض الالتهاب الشعبي الرئوي وارتفعت الحرارة الى الدرجة الاربعين واشتد الداء رويداً رويداً حتى بلغت الحرارة سبعة اعشار فوق الدرجة الاربعين وظهرت اعراض "التسمم البولي". وقد عالجه جماعة من نخبة الاطباء الوطنيين والاجانب فلم يدفع العلاج محذوراً ولم يرد مقدوراً وما زالت الاعراض تشتد الى ان توفاه الله يوم الخميس لسبع خلون من شهر يناير في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة عشرة مساء. ولم يمضِ الا بضع ساعات حتى نشر البرق منعاه في العاصمة وسائر المدائن المصرية فعم الحزن كبار البلاد وصغارها وبدلت الافراح بالاتراح. وأُتي بجنازته الى العاصمة ظهر اليوم التالي وشيعت الى المدفن بما يليق من التعظيم والتكريم فمشى فيها جميع الامراء والعلماء والوزراء ووكلاء الدول وخلق كثير يعد بعشرات الالوف وكلهم مطرق من هول المصاب غائص من الحزن في بحر عباب. وهم بين باكٍ يكفكف العبرات. وراثٍ يردد الحسرات. ومرتاب في صحة ما يرى ويسمع. ومستسلم للقضاء الذي لا يُدفع. والكلُّ في حزنٍ يقلقُ لا تجمّل يردع

حتى اتوا جدثاً كأنّ ضريحه في قلب كل موحدٍ محفورُ

فوارته في التراب جسماً رهين البلى وهو غاية ما ينالهُ الموت من كرام الانام الذين لا يموتون ولو صاروا عظاماً رميماً بل تبقى آثارهم خالدة حتى يوم المعاد. ومآثرهم هدى يسترشد بها من تولّى امر العباد

ترجمة الفقيد * هو اكبر انجال جناب الخديوي السابق اسمعيل باشا ابن ابرهيم باشا ابن

محمّد علي باشا الكبير رأس الاسرة الخديويّة ولد يوم الخميس عاشر شهر رجب سنة ١٢٦٩ هجريّة (١٨٥٢ ميلاديّة) . وقد عُني والدهُ بتربيتهِ وتهذيبهِ فلما بلغ التاسعة من العمر دخل مدرسة المنيل فدرس فيها العلوم الابتدائية ثم دخل المدرسة التجهيزيّة فدرس فيها الصرف والنحو والجغرافية والتاريخ والطبيعيات والرياضيات واللغات . ولما بلغ التاسعة عشرة تولّى رئاسة المجلس الخصوصي وتقلد نظارة الداخلية ونظارة الاشغال ورئاسة مجلس النظار وما زال يرقى المناصب والخطط العالية حتّى رقي الاريكة الخديويّة بعد تنازل والدهِ يوم الخميس سابع شهر رجب سنة ١٢٩٦ الموافق ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ بمقتضى رسالة برقية وردت من لدن الحضرة الشاهانية . وفي ٢٦ شعبان من تلك السنة جاء الفرمان الشاهاني بتخويلهِ امتيازات جديدة فوق ما سبق من الامتيازات ومن ثمّ قام باعباء الخديويّة الجليلة مستعينًا برجال من نخبة الوزراء فكانت فاتحة اعمالهِ انهُ الغى كثيرًا من الضرائب التي كانت البلاد ئثن تحت اعبائها ثم نظر الى اصل مشاكل القطر اي الديون فأمّن اصحابها وامر فتألفت لجنة التصفية ونظرت في دخل البلاد وخرجها وحدّدت لكلّ منهما قدرًا بعد مراعاة مقادير الديون وربّاها . ثم وجّه اهتمامهُ الى استطلاع احوال الرعية فسافر في انحاء القطر وكان لسياحتهِ شأن عظيم وفوائد جمّة . ثم اهتمّ باصلاح شأن العلم في البلاد فوسع نطاق المدارس العالية كمدرسة دار العلوم وانشأ المدرسة التوفيقية والمدرسة الخديويّة والمدرسة الزراعيّة وجدد بناء مدرسة الطب ونظّم المستشفيات

ومن المزايا التي امتازت بها الخديويّة في ايامهِ إنشاؤهُ نظام الشورى في البلاد فألّف مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية حتّى لا يُسنّ قانونٌ ولا تُضرَب ضريبةٌ الّا بعد مشورة اعضاء الشورى او اقرار اعضاء الجمعية العمومية . ومن أحسن ما يخلّد لهُ في التاريخ انشاؤهُ المحاكم الاهلية في البلاد فحفظت بها الحقوق وتساوى امامها الرفيع والوضيع . وتحسين حالة الري بتجديد الترع وبناء القناطر الكثيرة وترميم القناطر الخيريّة وتوزيع مياه الري بالقسط ورفع السخرة عن عاتق الفلّاح

اما معاملتهُ للرعية فكانت معاملة الاب الشفوق لابنائهِ فانهُ كان يواليهم في ميسرتهم ويرفق بهم في معسرتهم ولما انتشر الوباء في القطر بعثتهُ الشفقة عليهم الى اصدار اوامرهِ بتوزيع الادوية مجانًا على المصابين ولما خفت وطأة الداء امر فألّفت لجان لجمع الاعانة للمنكوبين وتبرّع بمقادير طائلة من مالهِ الخاص وذهب بنفسهِ الى مستشفى قصر العيني اثناء شدة المرض وفتكهِ بالنفوس وكان فيهِ كثير من المصابين فعادهم واحدًا واحدًا وسأل كلاًّ

منهم عن حالهِ تنفيسًا لكربهم وتخفيفًا لمصابهم . ولما طغى السيل واغرق كثيرًا من البلاد في سنة ١٨٨٧ توجه بنفسهِ الى مواطنهم وتعهد احوال الذين اصابهم الغرق منهم ثم لما عاد الى العاصمة امدَّهم من مالهِ الخاص وامر بتأليف لجنة اعانةٍ لهم فاقتدى بهِ اهل البرّ واليسار وجمع قدرٌ طائل من المال وزّع على المصابين . وكثيرًا ما كان يزور المدارس والمستشفيات فيمتحن التلامذة بنفسهِ ويوزع عليهم الجوائز ويرغبهم في احراز العلوم ويعود المرضى ويسأل الاطباء عن ادوائهم وعلاجهم ويعضد جميع الاعمال الخيريَّة بمالهِ

وقد ساح في بلادهِ ثانيةً فبلغ اقصاها ولم يترك مديريَّة ولا محكمةً ولا دارًا من دور الحكومة الاَّ زارها وباحث رجالها في اعمالهم واطَّلع على دفاترهم وسجلاَّتهم وقد قابلهُ الاهلون في سياحتهِ بما لا مزيد عليهِ من الاحتفال والاحتفاء حتَّى شهد اكثر من واحد من الاوربيين ان اكبر سلاطين اوربا لا يقابَل بمثل ما قوبل بهِ خديوي مصر في بلادهِ

وقد تولى مصر قبلهُ كثير من الملوك والسلاطين والخلفاء والامراء الذين حفظ التاريخ وصف خصالهم وفعالهم وابان لنا اسباب عزهم ومجدهم وسطوتهم وصولتهم فمنهم من اشتهر بحروبهِ واجرائهِ دماء العالمين انهارًا ومنهم من اشتهر بفتوحهِ وتغشيتهِ الارض خرابًا ودمارًا ومنهم من اشتهر ببذخهِ وتبذيرهِ وهاكرم الشعراء ومنهم من اشتهر بالغنى والثروة ولكن من اموال الفقراء . ولكنهم على اختلاف اخلاقهم واوصافهم في المدح والذم وافعالهم واجيالهم في الحداثة والقدم قد اشتركوا جميعًا في حكم واحدٍ وهو انهم بنوا سطوتهم وهيبتهم على الخوف والرهبة وحكموا رعيتهم الحكم الاستبدادي المطلق ولا ندري ان مصر شاهدت من ملوكها وامرائها غير هذه الخطة التي وصفناها منذ انتظم عقد الاجتماع فيها وشيدت اركان العمران بها الاَّ عند استلام توفيق الاول لزمام مهامها واستوائهِ على سرير امارتها فنسخ كل ذلك الاصطلاح القديم وجرى على اصطلاحٍ جديد مضارع لاصطلاح الممالك الاوربية السابقة في ميادين العمران

قلنا ان ملوك مصر السابقين بنوا على الخوف والرهبة سطوتهم وهيبتهم وقد يتبادر الى الذهن من ذلك انهم كانوا من فطرتهم اشداء يعاملون رعيتهم معاملة القساة العتاة وذلك ليس بالمقصود اذ هم لم يخرجوا في فطرتهم عن اخلاق غيرهم من البشر فمنهم من كان من طبعهِ قاسيًا عنيًّا يشدّد على الرعية ولا يشفق ومنهم من كان حليمًا لين العريكة يرفق بالرعية ويخلد الى السكينة ولكن اختلافهم في الاخلاق بمعزلٍ عن اتفاقهم في الاصطلاح . ألا ترى ان الاقدمين منهم كانوا يبالغون في الترفع عن الرعية والتحجب عنهم دونهم منصبًا ومقامًا حتَّى خيَّل لبعضهم انهم ارقى من البشر فطرة فادعوا الالوهية . وكانوا يقرنون هذا الترفع

والتحجب بكل ما يلقي هيبتهم في قلوب العباد . ثم بني الترفع والارهاب الاصطلاح المعول عليه في تمكين السطوة وتعميم الصولة وكان الناس يحترمون ملوكهم وامراءهم ويهابونهم ولكن عن خوف ورهبة لا عن وفاء ومحبة . وهذا كان حكم العموم ولا يقدح فيه شذوذ الخصوص عنه

ولما طال عهد الارهاب على الرعية صار الخوف فيها من الحكام عادة واوشك ان يصير ملكة راسخة في نفسها يتوارثها الخلف عن السلف وهذا تأويل ما نراه من اظهار الرهبة والمهابة عند ارادة الاعتبار والاكرام . فلما قيض لهذا القطر ان يتولى توفيق الاول امره وكان من طبعه رؤوفا حليما يعامل الناس بالرفق واللين ويقابلهم باللطف والانس ويكره الغطرسة والكبر نسخ الاصطلاح القديم واستبدله بالاصطلاح الجديد وشيد سطوته وهيبته على اركان الحب والاخلاص فرفع الحجاب الذي بينه وبين الرعية وجعل يتودد اليها ويلاطف كبارها وصغارها حتى امتلك القلوب بالحب واستعبد الناس بالاحسان

على ان هذا التنازل منه الى رعيته واتخاذ حبهم وولائهم اساسا لسطوته وهيبته اقل اعتبارا من تنازله عن حقوقه وتبرعه بتقييد نفسه بنفسه اعتقادا منه بأن ذلك اصلح لخير رعيته . فحكمه من اصل وضعه استبدادي مطلق وله حق التصرف في شؤون رعيته على ما يشاء ويختار مع مراعاة امور معينة ولكنه أبى الا ان ينسخ الاستبداد من البلاد ويستبدل الحكم المطلق بحكم مقيد مطاوعة لدواعي الانصاف المغروسة في غريزته . فتولى البلاد وحكومتها على ما ذكر من مطلق التصرف والاستبداد وغادرها وحكومتها دستورية ذات قوانين ومحاكم وهيئة شورية تكاد تحكي ما هو مشاهد في الممالك المتمدنة الاوربية

ولا يدري الا الله ما تجنيه هذه البلاد بعد هذا الاصلاح العظيم الذي اقام فيها الدستور مقام الاستبداد وقيد الحكام بقيود الاوامر والقوانين . فان ما تم لها من الخيرات انما هو شيء يسير مما سيتم ان شاء الله . ومع ذلك فالذي تم حري بان يفاخر به السلف وينافس فيه الخلف

على ان الفقيد لم يلذ بثمار مساعيه الا منذ عهد قريب والا فمعظم ايام حكمه كانت اعوام انقلاب واضطراب ونسخ وتجديد وتغيير وتبديل وقد كان يعاني ذلك بالامل الوطيد والصبر الجميل ناسيا عوائل الماضي ناظرا الى حسن العواقب في المستقبل وهو في تلك الغضون لا يهمل كبيرا ولا يغفل عن صغير حتى اذا ابتسم له الدهر وصفا له كأس الحياة من شوائب المصائب واكدار الاخطار وباشر شؤون رعيته بنفسه دعاه داعي المنون فلباه بلا ابطاء وابقى مآثره وآثاره ذكرا حميدا وارثا مجيدا يخلد فخرا لمصر في تاريخها ما تعاقب الجديدان وناحت الورق على الاغصان